الطبع والعقل في الشرق والغرب

وطىء الغربُ هامة العلياء برجالٍ ذوي نهىً وذكاء
قرَّبوا بالبخار كلَّ بعيدٍ وأزالوا الصعابَ بالكهرباء
كلَّ يوم لهم جديد اختراعٍ واكتشافٍ في جعبة الانباء
ما اكتفوا بالمسير برًّا وبحرًا كيف شاؤوا بلا اقلّ عناء
بل سمت فيهمِ العزيمةُ حتى اسـ تسهلوا السير تحت سطح الماء
وتحرَّوا مع ذي اجنحةٍ سباقًا فامتطوا مثلهُ جناح الهواء
ليت شيخَ المعرَّة الفيلسوف الـ فردَ ربَّ القريض والانشاء
يُبعثُ اليوم مبصرًا كي يرى ما جدَّ في ارضنا من الاشياء
لو رأى ما رأتهُ باريسُ من سـ توس دیمون طائرًا في السماء
لم يؤخر اصلاح صدر شهير "سر ان اسطعت" قاله في الرثاء[1]
وبكى شرفهُ اسيفًا واهل الـ شرق طرًّا اولى الورى بالبكاء
وأراهم مصداق ما يرتئيهِ انهُ كان أصدقَ الآراء

ذهب كاتب العرب البليغ وشاعرها المفلق وفيلسوفها الحكيم الشيخ ابو العلاء المعري ان الانسان عرضة لقوَّتين شديدتي الحول عظيمتي الصولة تتنازعانهِ آناء الليل واطراف النهار فتجذبهُ هذه ذات اليمين وتقذفهُ تلك ذات اليسار . وهاتان القوتان هما الطبع والعقل فمن عصى عقلهُ واطاع هواهُ وساير الطبع الى حيث دعاهُ تولاَّهُ الجهل والغرور وتحكمت فيهِ الشهوات الطبيعية والملاذّ الحيوانية واستأثرت بهِ الاوهام والاباطيل واضلَّتهُ سواء السبيل ولم تُبقِ لهُ في خزانةِ قواهُ العقلية شيئًا يميزهُ عن الحيوان الاعجم . ومن استرقَّهُ الهوى واستعبدهُ الوهم فلا يرجى لهُ نموٌّ يتخذ دليلاً على كونهِ حيًّا ولهذا يعدُّ ميتًا وهو بعدُ في قيد الحياة

ومن عصى طبعهُ وأطاع نهاهُ واستعان بقوة عقلهِ على كبح جماح هوى النفس ومشتهى الطبع رأى سلَّم الارتقاء منصوبةً لديهِ من الارض الى السماء فارتقى الى اسمى الذرى ورأى من اسرار الطبيعة ما لا يرى وعني بملاحظة كل ما يحدث حولهُ و يعرض لديهِ ووفَّاهُ حقهُ من التجربة والاختبار وعكف على الاستقراء والاستنتاج رادًّا الحوادث الى مصادرها والمسببات

(١) اشارة الى قولهِ سر ان اسطعت في الهواء رويدًا

الى اسبابها والنتائج الى مقدماتها حتى اخذ بعنان الاستنباط والابداع . وملك ناصية الاكتشاف والاختراع

هذا ما دار في خلد ذلك الفيلسوف العربي منذ نحو تسع مئة عام وهي حقيقة عرضت لهُ في مرآة الخيال فتقصّاها بالبحث والاستقراء وعرضها على كير الاختبار والامتحان حتى صفّاها من شوائب الغموض وجرّدها من اعراض الخفاء وجلاها على ابناء جيلهِ جوهرةً تدهش الابصار والبصائر ومن دونها اغلى الحلى واكرم الجواهر . وان شئت ان ترى كيف احتفل ذلك الشيخ الحكيم بامرها . وقدرها حق قدرها . فعليك بمراجعة منظوماتهِ ولا سيما ديوانهُ المعروف بلزوم ما لا يلزم فانهُ لم يغادر فيهِ مقطوعةً او قصيدة الاَّ زان بهذه الجوهرة عقدها ووشى بطراز هذه الحقيقة بردها فمن ذلك قولهُ

كذب الظنُّ لا امام سوى العـ ـقلِ مشيرًا في صحوهِ والمساء
فاذا ما اطعتهُ جلب الرَّ حمةَ عند المسيرِ والارساء

وقولهُ

لا تطيعي هواكِ ايتها النفـ ـسُ فنعمى المليكِ فينا رقيبه
فالزمي النسكَ ان عقلتِ وفري من ذوي الجهل كي تعدّي لبيبه

وقولهُ

عصًا في يدِ الاعمى يروم بها الهدى ابرُّ لهُ من كلِّ خدنٍ وصاحبِ
فأوسعْ بني حوّاء هجرًا فانهم يسيرون في نهجٍ من الغيِّ لاحبِ
اذا ما اشار العقل بالرشد جرّهم الى الغيِّ طبع آخذهُ اخذُ ساحبِ

وقولهُ

عجبًا لي اعصي من الجهلِ عقلي ويظلُّ السليم عندي جريحا
مثل قيسٍ غداة فارق لبنى عاد يشكو فيما جناهُ ذريحا

وقولهُ

الى الله اشكو مهجةً لا تطيعني وعالم سوءٍ ليس فيهِ رشيدُ
حيٌّ مثل مهجور المنازل دائرٌ وجهلٌ كمسكون الديار مشيدُ

وقولهُ

يستحسن المرء دنياهُ نثقلقهُ والعين تستحسن الخدَّ والزَّبدا
فازجر هواكَ وحاذر ان تطاوعهُ فانهُ لغويٌّ طالما عبَدا

ولكنَّ اهل زمانهِ لسوء الحظِّ لم يستفيدوا مما قرَّرهُ علمًا ولا ادبًا ولا اتخذوا مذهبهُ لهم مذهبًا بل عدّوا جوهرهُ عرضًا ودرَّهُ مختلسًا . ولم يكتفوا بعدم اعتبار هذه الحقيقة حتى كفَّروا صاحبها ورموهُ بسوء العقيدة وفساد الطريقة . ولا يزال الى يومنا هذا فريق كبيرٌ من ائمة الاديان ورؤساء المذاهب يحرّمون على اتباعهم تلاوة هذا الديوان زاعمين عفا الله عنهم أنَّ في تلاوتهِ عبثًا بالمعتقد وخطرًا على الإيمان

فلو بُعث ابو العلاء في هذه الايام وأُتيح لهُ أن يرى أبناء جنسهِ وباقي اهل الشرق لا يزالون من حيث الارتقاء العقلي والتقدُّم الادبي كما كانوا في زمانهِ ان لم نقل احطَّ منزلةً وادنى درجةً . يحفلون بالاضاليل والاباطيل وينزّلون الترهات والخزعبلات منزلة الوحي والتنزيل . ويقابلون الحقائق بالانزواء والإعراض . ويلهون عن الجواهر بالاعراض ويفخرون بما قد يكون ادعى الى الاستحياء والخجل . وهكذا يتقدمون الى وراء ويرتفعون الى اسفل

ثم أُتيح لهُ ان يرى اهل الغرب يزدادون غنىً وثروةً وعظمةً واقتدارًا وقد خضعوا للعقل خضوع العبيد للسادات وطلّقوا الطبع واهواءهُ طلاق البتات . وخلعوا نير التقليد واخلصوا سبك الحقائق العلمية بنار التجربة والامتحان فنما العلم عندهم وبسقت اغصانهُ وورفت ظلالهُ ودنت لهم مقاطفهُ ومجانيهِ . ولانت قعاطفهُ ومثانيهِ واستعانوا بهِ على الصناعة حتى ابلغوها من الاحكام والاتقان جدًّا يدهش عندهُ الانسان من قدرة الانسان ويقول ليس في الامكان احسن مما كان . واتخذوهُ ذريعةً لبسط ظلّ تجارتهم فاتسع في الخافقين نطاقها وامتدَّ رواقها ورشجت الى اقصاء الارض اعراقها . واحلق ملوكهم وامراؤهم واغنياؤهم وعظماؤهم باحكماء والعلماء والشعراء والادباء وقرَّبوهم اليهم وبالغوا في اكرامهم واجزلوا لهم الصلات والهبات ومكنوهم من التفرُّغ للبحث والتنقيب والتأليف والتصنيف وسهلوا لهم سبل الاختراع والاكتشاف فملّكوا الانسان قياد البخار يدير بهِ آلات المعامل والمصانع ويقطع لجج البحار ويجوب عرض القفار ثم ذللوا لهُ قوَّة الكهرباء يستخدمها مكان البخار في قضاء كثير من الحاجات ويطير بها الانباء ويخاطب الاصدقاء ويحفظ من الاصوات ما شاء ويتأنَّق بها في كمالياتهِ للانارة وغيرها

لو رأى شيخ المعرَّة هذا كلَّهُ في الغرب ورأى فيهِ ايضًا اناسًا طائرين في الفضاء يشقُّون عباب الهواء يحلّقون الى ارفع من مطار النسر ويجرّعون ذوات الجناح غصة الخوف والذعر . لو رأى سنتوس دمون الطيَّار البرازيلي الشهير طائفًا حول قمة برج ايفل ثم صحبهُ الى لندن وسمعهُ يذكر المسافات المترامية التي وطن نفسهُ على قطعها في مركبتهِ الهوائية فوق البحار غير

مبالٍ بالمخاذير ولا مكترث للاخطار

لو سمع بالسفن الغوّاصة التي اخترعوها للسير تحت الماء وشهد بالامس تجربة الغوّاصة هولند في جزيرة لنغ مقابل نيو يورك حيث غاصت بمن فيها الى جوف المياه فقضى ركبها هنالك خمس عشرة ساعة أكلوا في خلالها وشربوا ولذّوا وطربوا وسمروا ولعبوا حتى اذا قضوا ما شاؤوا من غرض التجربة والامتحان وراعوا بمنظرهم الاسماك والحيتان صعدوا الى سطح الماء وقد عزموا ان يقطعوا بها شوطاً بعيداً جداً

لو رأى سفينتين في ظهر البحر تتخاطبان على بعد سبعين ميلاً بتلغراف مركوني ولا موصل بينهما غير الماء والاثير المنتشر في الفضاء . لو رأى كل ما اخترعوا واستنبطوا وعرفوا واكتشفوا من اسرار الطبيعة وغوامض القوى وعجائب الامور وغرائب الاشياء مما يفوت عدّهُ الوسع . وتضيق دون احصائهِ مسافة الذرع

لو جال في العواصم الكبرى وشاهد الصروح الباذخة والقصور الشامخة والفنادق الفخيمة والاندية العظيمة والقلاع المتينة والابراج الحصينة والمعارض والمتاحف والملاجىء والمتصدقات والمصاحّ والمستشفيات وسكك الحديد ومركبات الكهرباء والعربات السائرة بقوة ضغط الهواء والدرّاجات والسيّارات وغير ذلك من معالم العمران ومظاهر قوة عقل الانسان

لو رأى ما استنبطوهُ للحرب والكفاح من الآلات المهلكة للنفوس والحاصدة للارواح . من بنادق ومدافع وقنابل وقذائف ونسّافات ومتلفات وغير ذلك من الادوات التي اغنت عن القسي والنبال والمزاريق وقامت مقام الحرّاقات والكباش والمزاريق

لو رأى مدارسهم الابتدائية والعالية والكلية والجامعة بين علمية وطبية وعسكرية وهندسية وزراعية وحقوقية ومطابعهم وجرائدهم ومجلاتهم ومكاتبهم ومجامعهم العلمية وجمعياتهم الخيرية وبعثاتهم الجغرافية والجيولوجية والفلكية

لو رأى اكثر الاغنياء بينهم يجمعون الملايين بشقّ النفس وعرق الجبين وهجر الراحة والهناء وتحمل التعب والعناء ثم يوقفون جانباً عظيماً منها لانشاء المدارس والمتصدقات وللانفاق على الاكتشافات الجديدة والاختراعات المفيدة المساعدة على مقاومة الادواء الوبيلة والامراض المعدية والآئلة الى زيادة انتشار العلم والعرفان . وتخفيف الرزايا والويلات عن بني الانسان

لو رأى شيخنا ابو العلاء كل هذه المظاهر الرائعة الدالة على مبلغ اهل الغرب من التقدم والارتقاء . لناح من جهةٍ على شرقهِ وانتحب . وأسف واكتأب . وسرّ من جهة أخرى لأنهُ رأى بعينهِ صواب حكمهِ القديم وصحة رأيهِ القويم وعاد الى ضريحهِ مغبطاً دعاة العقل ومريديهِ

لانهم في نعيم مقيم يبقى بقاء السماء . وآسفاً على شقاء زعماء الطبع وتابعيهِ لأنهم اموات في صور احياء

وبعدُ ايها المطالع الكريم فما رأيك في هذه المقابلة البسيطة اليست صحيحة من كل وجوهها صادقة في جميع احكامها . لو نبذتَ معي الغرض جانباً ونحيت عنك محبة النفس والجنس والوطن وتأمّلتَ في حالتنا الحاضرة وبحثت عن السبب الحقيقي الفاعل في انحطاطنا عن اهل الغرب وسبقهم لنا لم تجد لذلك من داعٍ اكيد سوى استرسالنا الى الطبع وتقريطنا في العقل

ولا اكتمك أنّ الطبع الذي انقدنا اليهِ وضحّينا العقل في سبيلهِ فعل بنا فعل المخدّر بالعليل فلم نعد نشعر بالخسارة الفادحة التي كابدناها لأنهُ سلّط علينا في الحال احد عوامله وهو الوهم وموّه علينا ما لا يجوز على الاولاد الصغار لكننا لسوء الحظ اعتقدنا صحتهُ وصدّقناهُ وتعزّينا بهِ عن العقل لا بل اطلقنا سراحهُ الى اهل الغرب ولم نأسف على فراقهِ

صوّر لنا الطبع بقوة الوهم انّ النطق كفيل بتمييزنا عن الحيوان او ليس لانسان " حيواناً ناطقاً " ؟ ثم اوهمنا فوق ذلك ان العقل نصير الكفر وعدوّ الإيمان ومدعاة الانبعاث في الشرور والمفاسد الشهوانية وقد بلغ من شدة تحاملهِ على العقل ان رماهُ بدائهِ وانسلّ

لكنك تعلم ايها المطالع ان تمييز الانسان عن الحيوان بالنطق ليس بصحيح لان الحيوانات ناطقة ايضاً بمعنى انّ لكلّ فريق منها اصواتاً معروفة عندهُ يتفاهم بها كما نتفاهم نحن بما نسميهِ نطقاً . وان المميز الحقيقي للانسان هو العقل لا غير فهو حيوان عاقل لا حيوان ناطق . اذاً عاصي العقل ومطيع الطبع ليس بانسان وهذه النتيجة مرّة لكنها لسوء الحظ صحيحة

اما القول بان العقل نصير الكفر ومدعاة الانبعاث في الشرور فهو شرّ تهمةٍ لفقها الطبع لاصحابهِ . وكثيرون منا لنكد الطالع يتعللون حتى يومنا بمثل هذه السفاسف الصبيانية . لان اهل الغرب الذين فاقونا في الارتقاء العقلي فاقونا ايضاً في الارتقاء الادبي وما نسمعهُ عن المفاسد والشرور الفاشية بينهم لا يؤخذ دليلاً على انحطاط شأنهم الادبيّ بل هو نتيجة حريّة النشر والاذاعة لكل ما يحدث عندهم ويقع بينهم ثم انهُ ليس بصادر عمن نعنيهم من اصحاب العقول الراجحة والمدارك السامية بل عن الناس باقين مثلنا او احطّ منا منزلة في الارتقاء العقلي

وقد علم بالاختبار المدقق انّ الانسان كلما ارتقت عقلهُ ارتقت آدابهُ وصحت مبادئهُ وشرفت اميالهُ وخلصت عواطفهُ من شوائب الاهواء الحيوانية والاميال البهيميّة . لان قواهُ العقلية المنصرفة باميالهِ تعصمهُ عن التهالك الى الخزايا وانصرافهُ الى المباحث العقلية يشغلهُ باجمعهِ ولا يترك فيهِ منصرفاً نحو الملاذ الحيوانية

اما الانسان المستعبد لطبعهِ وليس لهُ من قوى العقل ما يشغلهُ عن هوى الطبع فإنَّ الملاذ الحيوانية تجدهُ كلما طرقتهُ فارغاً معدًّا لها واذا رزقَ غنىً وتوفَّرت له أسباب الترف والرخاء اطلق لنفسهِ في مجال الشهوات العنان . وعاش انسانًا احطَّ شأنًا من الحيوان . ومات حيوانًا في صورة انسان

فهنيئًا لمن سمع النصح ووعاه . واطاع عقله وعصى هواه . وطوبى لمن قصَّر في سبيل الغرور المدى . والسلام على من اتبع الهدى القاهرة اسعد داغر

مسئلة أصولية

حكم الله واجتهاد المجتهدين

قال الفخر الرازي جرت عادة الاصوليين ان يذكروا اول ابوابهم ما هو الاصل والقاعدة ثم يخرجوا عليها المسائل فنقول : اختلف الاصوليون هل لله تعالى في كل حادثة حكم واحد معين في الواقع ونفس الامر قبل الاجتهاد يرتادهُ المجتهد بالطلب بالادلة وهل هو مكلف باصابتهِ او لا . فعلى هذا اعني ان لهُ تعالى في كل حادثة حكمًا واحدًا معينًا في نفس الامر قبل الاجتهاد فالمصيب واحد من المجتهدين في الحكم المطلوب وغيرهُ مخطئ لكنهُ معذور لانهُ لم يقصِّر في الاجتهاد بل هو مأجور لبذلهِ وسعهُ . وهذا أعني القول بان حكم الله واحد معين والمصيب واحد هو الراجح عند جماعة من المحققين وعبَّر عنهُ العلامة ابن حجر المكي في الفتح المبين وغيرهِ بالاصح وفي موضع من كتابهِ التحفة بانهُ الحق . وعليهِ فهل يتعين المصيب ايضًا ام لا فالاكثر على انهُ لا يتعين فالمصيب واحد لا بعينهِ فهو واحد لا نعلمهُ وهذا هو الراجح . وفصَّل بعضهم فقال ينظر في المجتهَد فيهِ فان خالف احد المجتهدين فيهِ النص مخالفة ظاهرة فهو المخطئ بعينهِ خطاءً لا يبلغ تضليلاً والتمسك بالخبر الصحيح والنص الظاهر مصيب في الحكم لا بعينهِ . وعلى ان حكم الله في المسئلة الواحدة معين والمصيب واحد غير معين يجري قول بعض ائمة الحنفية والشافعية اذا سئلنا عن مذهبنا ومذهب مخالفنا قلنا وجوبًا مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ومذهب مخالفنا خطأ يحتمل الصواب وحينئذٍ فلا يمكن ان يقطع او يظن انهُ على الصواب بل على المقلد ان يعتقد ان ما ذهب اليهِ امامهُ يحتمل انهُ الحق . وقد صرَّح المحقق الكمال بن الهمام بما يؤيدهُ حيث قال في شرح الهداية إنَّ اخذ العامي بما يقع في قلبهِ